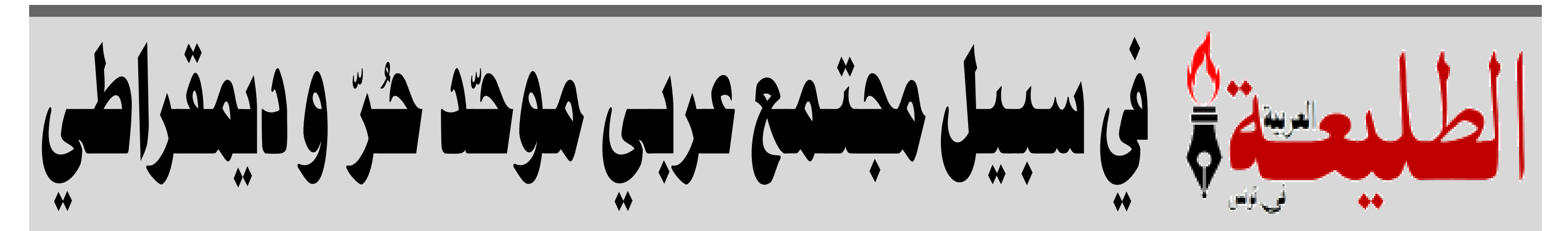
مفيد نحلة

معركتنا الراهنة
في مواجهة الغزو الثقافي



منشورات الطليعة تونس 1985



معركتنا الراهنة
في مواجهة الغزو الثقافي

مفيد نحلة
(الأردن)

1981

مدخل :

أين تقف ثقافتنا العربية في ظل متغيرات هذا العصر ؟

سؤال يطرح نفسه دائما ، وللاجابة على هذا السؤال ، لابد أن نؤكد على مجموعة حقائق منها :

- ان ثقافتنا العربية تؤمن بضرورة التطور ، ذلك لانها منفتحة على الثقافات المختلفة تأخذ منها وتعطي .
- كما أن الثقافة العربية لا تعيش بمزاج عصر سابق ولا تتقبل مزاجا أجنبيا تنصهر فيه ، ولكنها تجعل من جذورها مرآة لاندفاعها نحو الكمال .
- وتؤمن كذلك بأن التوقف ضد طبيعة الحياة ، ذلك لانها تملك القدرة على الانطلاق والتجدد دون أن تفقد عامل الوحدة والارتباط بالماضي ، وهكذا ستظل قادرة على تشكيل نفسها حسب حاجات العصر واختلاف البيئات دون أن تتخلى عن قيمتها ومقوماتها الاساسية .

هل استطاعت ثقافتنا العربية الوقوف أمام تيارات الفكر المتشعبة؟.

واذا صح ذلك فالى أي مدى تحقق لنا هذا الحد من الانجراف وراء تلك التيارات الفكرية ؟

اننا اذا اردنا أن نتحدث عن آفــاق التطور الثقافي في عالمنا العربي سنرى ان هذا التطور يتزامن مع التطورات الاخرى في تنظيم المجتمع العربي والفكر العربي ..

واذا كانت الثقافة وتطورها وثيقة الصلة بكل ما في المجتمــع من جوانب حضارية ، فان تأثيراتها الايجابية تظهر واضحة في التكامل البنائي لهذا المجتمع ، وينعكس هذا التكامل سلبا وايجابا حسب مراحل التطور الفكري والثقافي .

ومن هنا يأتي دور تأصل الثقافة ، وتظهر هذه الاهمية حين يتعمق التأصل الثقافي في الانسان نفسه .. (فبقدر تعلقنا بقيم التراث ينبغي دوما محاولة تجاوز ذلك الى قيم اوسع تحولا واعلى منالا ، وهي القيم الانسانية الخالدة في جوهرها ، والمتغيرة في مظاهرها حسب العصور والمجتمعات ، ولكن ليس لثقافة من الثقافات الحيّة أن تسعى اليها ، الا عن طريق الانغماس في التربة القومية ، فاذ ذاك تكون نفحات الانسانية عابقة فيها من حيث لم يقصد اليها ..

وهنا يطرح سؤال نفسه مجددا ، اين مكانة الفرد من الثقافة ؟ .

لابد ان نشير الى حقيقة أزلية ، اذ ان مكانة الفرد في الثقافة العربية كانت وما زالت حتى يومنا هذا محورا للعمل الجماعي ، وظلّ الاتجــاه الى الجماهير الشعبية منذ القدم لتسيير الثقافة والانطلاق بها الى الامتداد الارضي هو الهدف .. وهكذا تشكلت المعادلة الجادة والتي تقول : (بان الثقافة لا تكون صادقة الا اذا كانت وترا مشدودا بين ما ينزع اليه الفرد من طموح وابداع وبين ما تحتاج اليه الجماهير من وعي) .

واذا كانت هـذه هي المعادلة التي نتجت عنهـا ، فان كثيرا من الاشارات التاريخية والزمنية تتوقف عند زحف الاستعمار على منطقتنا العربية بكل أشكاله .. وثبت من خلال الدراسة والمعاناة والمعايشة أن الاستعمار الثقافي كان يسعى دائما الى بتر المثقفين العرب عن ثقافتهم الاصلية وربطهم بقيم الحضارة الغربية ، واقناعهم بأن هذه القيم هي حقائق انسانية مطلقة ؟ .

وظهر من يتساءل :

اذا كانت ثقافتنا قد تخلفت عن ركب الحضارة ، فهذا يعني أن هذه الثقافة لا تستطيع مسايرة التطور والتقدم.. وهكذا بدات معادلة أخرى ترتسم في اذهان الاجيال .. (الثقافة القديمة لا تصلح للحياة المعاصرة المنطلقة نحو آفاق التقدم ، ومن ثم فالبديل غزو ثقافي للانتقال من هامش التاريخ الى الحياة المعاصرة) .

واقترابا من هذه المعادلة يصبح المجتمع غير قادر على التحرك باتجاه فكري أصيل .. وعليه اذن أن يتقوقع وأن يتشقق من الداقل ..

وتبقى المسالة خطيرة حينئذ .. ذلك أن الانحلال التدريجي سوف يأكل المجتمعات الصغيرة ولا يبقي عليها ، وبذلك تنعكس آثار هـذه المعادلة بشكل سالب لا يصدق ..

ثمة شيء خطير ايضا ، هو أن هـذه التقطعات الفكرية ناجمة عن تناقضات عديدة في المجتمع الواحد .. ولعل اهم مصدر لهذه التقطعات في المجال الثقافي هذه الثنائية بين أنماط ثقافية تقليدية ونماذج ثقافية دخيلة مستوردة ..

وهنا لا بد أن تقف ثقافتنا الواعية حيث تصبح قادرة على تشكيل المجتمعات وتكوينها من خلال معيار ملتزم بأسس ثقافية متطورة .. لعلها تساير ما يجري ، ولعلها تلتزم بأصالة التراث الحضاري .

ذلك أمر صعب ..

ولكنه ومع أدراكنا لنمو ثقافتنا تصبح الامور الثقافية ميسورة من خلال منظور تاريخي ، ومن خلال معيار فكري متقدم ..

ذلك مطلب ، ومن اجل هذا المطلب الشعبي يصبح لزاما على كل المثقفين العرب أن يتمحوروا حول اسباب التقدم الفكري و الثقافي ، وهذا يعني أن جماهير الشعب الواعية تظل قادرة على امتصاص كل الافكار الوافدة وبلورتها بالطريقة التي تخدم اهداف الامة ، وتدفع الأجيال لأن تركز من خلال التقائها مع ما يتلاءم واصالة هذه الامة لكي تكون انطلاقاتنا الحضارية قوية ومتقدمة ..

وعلينا والحال هذه أن نسعى جادين الى وضع ثقافتنا الوطنية على المحك ، بمعنى أننا يجب ان لا نغفل أن من اسباب نجاحنا في الماضي هو قدرتنا على التحكم بكل قنوات الفكر المفتوحة على ثقافتنا ، وهذا يلزمنا الآن : أن نفتح المجال وبشتى الطرق لان يكون احتكاك بين ثقافتنا وثقافات العالم المتطورة .. ومتى تحقق ذلك يصبح من الضروري ان يكون هناك التزام ، لئلا تحدث مفاجآت أو فراغ .. وكثيرا ما تحدث تلك المفاجآت في ثقافة احدى البلدان النامية حين تتعرض لغزو ثقافي متطور . فلا تلبث أن تنهار تلك الثقافة الوطنية لذلك البلد امام ذلك التيار الثقافي القوي ..

ان ثقافتنا العربية وعلى مرّ العصور اثبتت أنها قادرة على ملء الفراغ حتى في حالات الانحطاط والسقوط .. وظلت كذلك تنير الدروب المعتمة أمام اولئك الباحثين والدارسين والمستشرقين ، واثبتت لهم بأن هذه الثقافة هي الوسيلة والركيزة لإعادة لملمة الوطن العربي ، وتجديد نشاطه في الوحدة والانبعاث والتقدم ..

وقبل البدء بالبحث عن مفهوم التنمية الثقافية وابعاد التطور الثقافي لا بد من وقفة قصيرة حول معنى الثقافة .

* * *

الثقافــة :

تعريف ومفهوم :

الثقافة كلمة عريقة في لغتنا ، بمعنى صقل النفس والمنطق والفطانة، ثـم استعملت للدلالة على الرقي الفكري والادبي والاجتماعي للافراد والجماعات(١) .

وكما ان كلمة ثقافة عند استعمالها في لغتنا العربية هي كلمة مجازية مأخوذة من تثقيف الرمح أو تسويته فهي في اللغة الانجليزية أيضا مجازية، واذا تجاوزنا المعنى اللغوي لكلمة الثقافة وأخذنا المعنى الاصطلاحي الذي اصبحت تأخذه الكلمــة في مجالات الادب والتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع العام وعلم الاجناس فاننا نجد لها العديد من المعاني والتعريفات والتفسـيرات التي تختلف في اتساع أو ضيق معناها من تعريف الى آخر.

ومن هذه التعريفات الشاملة والعامة ما فسّرها به الدكتور عبد الله عبد الدايم في بعض ابحاثه ـ من انها انماط السلوك المعنوي والمادي العائدة لدى شعب من الشـعوب ، وتدخل في ذلك أنماط السلوك الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس وسواها من مظاهر الحياة المادية كما تدخل فيه انماط النتاج الفكري والادبي والفني والعلمي .

وجوهر هذا التعريف يثبت بالدلالة على أن ثقافة اية أمة هي التي تحدد اصالتها وتميزها عن أي أمة فوق هذه الارض ، ومن هنا كان الشرط الاول للثقافــة واصالتها او خصوصيتها أي تعبيرها عما يميز شعبـا عن آخر . وتصويرها للهوية الخاصة بكل أمة ، ونقلها للعطــاء المتفرّد الفذ الذي تود أمة من الامم ان تضيفه الى تراث الانسانية ، ومن هنا حق أن نقول أن لا ثقافة لمن لا اصالة عنده أي لمن لا يملك من التجارب الفكرية والادبية والفنية والذاتية الفريدة ما يقدم بــه رافدا جديدا للجهد الانساني الشامل(٢) .

وهكـذا يتحدد لنا الآن ان الثقافة بمعناها الواسع تشمل مكانة انماط السلوك الانساني ماديا ومعنويا .. كما تشـمل العادات والتقاليد والاعراف والقيم والخبرات والاتجاهات والنظم السائدة في المجتمع والمؤسسات الموجودة فيه ، فهي تشمل كل ما صنعه الانسان بيده أو انتجه بعقله وفكره من علم وفنون وتقنيات ومصنوعات ليحصل على أمنه واستقراره وليحقق حاجاته الجسمية والنفسية والاجتماعية انها تشمل الاهداف التي حددها المجتمع لنفسه والقيم التي يدين بها ، والوسائل التي يستعملها الناس ، واللغة التي يتحدثون بها ، والقوانين والتشريعات التي يتعاملون من خلالهـا في مجتمعاتها المحلية والادوات الي يبتكرها الانسان ويستخدمها في انتاج السلع والخدمات التي يحتاجها لاشباع حاجياته الصناعية التي انتجها والمنشآت التي طورها ..

ومن خلال هذه المجهودات الحياتية تتوزع أسباب الحياة ، لتصل الى كل يد عاملة ، ولتصل الى كل عقل يفكر ، وهكذا تترابط الحيـاة البشرية ، وتتوثق من خلال ثقافة حرصت على بلورة هـذه الاهداف ورفعتها درجة فوق درجة في بناء متكامل مرحليا وتكنولوجيا ، ووسمت الطرق المفتوحة من حوله ليبدأ حياته العملية قويا راسخا .

ومعنى هذا ان الثقافة تشمل اللغة والعادات والتقاليد والمؤسسات الاجتماعية والمستويات والمفاهيم والافكار الى غير ذلك مما نجـده في البيئة الاجتماعية من صنع الانسان .. والثقافة في التراث الاجتماعي الذي أخذه الجيل الحاضر من الاجيال السابقة والذي لا يستطيع الجنس البشري بدونه أن يصبح بشرا .. لان هذا التراث الاجتماعي هو الذي يميزه عن الحيوان ، ويتميز هذا التراث الثقافي عن التراث البيولوجي في أن هذا الاخير يولد الانسان به ولا ذنب له فيه ولا يستطيع تغييره ، أما التراث الاجتماعي فهو الذي يعيش فيه .

وفي اطار المعنى الواسع المتقدم للثقافة (يذكر عبد المنعم الصاوي) في أحد كتبه التي تعرض فيها لتعريف الثقافة أن الثقافة ليست هي

التعليم ، وان كان التعليم احد أسسها ووسائلها ، كذلك ليست الثقافة هي التربية وان كانت التربية ذات تأثير عليها .. كذلك الثقافة ليست هي العلم ، وان كان العلم كالتعليم والتربية له اثره على الثقافة ، كذلك الثقافة ليست هذه العادات والتقاليد .. وان كانت هذه .. العادات والتقاليد ذات أثر كبير على الثقافة ، كذلك الثقافة ليست هي الدين ولا العقيدة والمذهب ، وان كان للدين والعقيدة والمذهب اكبر الاثر على الثقافة « ان المعارف وحدها لا تكون الثقافة ، كذلك لا تكونها الانطباعات الوجدانية وحدها ولا العادات والتقاليد وحدها ولا القيم الاخلاقية وحدها وانما تتكون الثقافة من كل ذلك .. » .

وبعد هذه العجالة فاننا نتوصل الى التفسير التالي للثقافة :

ـ انها حصيلة ما يتجمع في العقل من معارف وما يكمن في الوجدان من انطباعات ، وما يستقر في الضمير من عقائد ، وما يرسب في النفس من عادات وتقاليد .

واذا كانت الحضارة هي المظهر المادي للثقافة فان الثقافة هي المظهر العقلي للحضارة .

والحضارة تترجم الثقافة الى تصوير ونحت ونقش وبناء وآثار فنية أخرى فتدل على الثقافة دلالة مادية تبقى على مرّ الزمن .

كذلك فالثقافة تترجم هذه الحضارة المادية الى مذهب عام في السلوك ، يعكس القيم المختلفة في الحياة العقلية والوجدانية والمادية والاخلاقية جميعا ، فالحضارة والثقافة اذن متقابلتان .

وهذه التعريفات تقودنا للتوقف قليلا عند بعض الحواجز الاجتماعية والتداخلات المتزامنة مع بناء تلك المجتمعات ذلك أن الثقافة بمعناها العلمي الواسع تتضمن كل ما يمكن أن يعلم عن طريق العلاقات الانسانية المتداخلة ، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية جميعا .

ومن خلال هذه الملاحظة الدقيقة ، يتراءى لنا قدرة الثقافة على خلق المجتمعات البشرية ، اذ عن طريقها يتم انتقال عمليات التعليم والتعلم سواء كانت هذه العمليات منتظمة أو غير منتظمة ، وهنا يأتي دور ثقافة المجتمع لبلورة النماذج المتصلة بـه اتصالا وثيقا عن طريق التقاليد والعادات للجماعة البشرية .

* * *

المسائل الثقافية بين التصنيف والمحتوى ..

ما هو دور الثقافة على المستوى الفردي .. ؟

وهل ثقافة الافراد في اي مجتمع تخضع لمزاجية اولئك المتعلمين ..

واذا كان الامر كذلك فكيف نفسر ارتباط الثقافة بالعلم ذاته .. ؟

وللاجابة على هذه الاسئلة لا بد أن نتوقف قليلا عند حركة الافراد في المجتمع ، فعلى المستوى الفردي تصبح الثقافة عامة ، فليس هناك من هو مثقف في التاريخ مثلا ، بل هناك عالم في التاريخ ، هناك مدرس في التاريخ .

وهي أن الثقافة عند الافراد صفة عقلية ، في تكوين اولئك واتساع أفقهم ..

وبما اننا نعيش في عصر العلم فانه من الطبيعي أن يستخدم الفرد بعض ثقافته من العلم بعد أن يدرسه ويتمثله تمثلا جيدا يحيله الى جزء من كيانه العقلي والنفسي وكل علم لا يتم تمثله على هذه الطريقة يصبح قليل الجدوى لا فائدة منه(٣) .

وعلينا أن نذكر ، ونحن نعتبر العلم أهم مصادر الثقافة ان العلم آلات وتقنيات بل هذه كلها آثار للعلم ، والعلم في حقيقته طريقة ونظرة معينة الى المسائل او اسلوب للحياة وايمان بالذكاء الانساني .

وحتى يصبح الفرد مثقفا ، عليه أن يكون متخصصا ومتعمقا في علمه، كما عليه أن يكون ملما بالقضايا الكبرى للعلوم وما احدثته هذه القضايا من تغييرات عصرية وتأثيرات فكرية في الحياة الانسانية .. وعليه والحال هذه ان يكون على مستوى حياة العصر الذي يعيش فيه ، كما عليه أن يتابع تلك القيم الجادة ، والتي ترفع من مجتمعه الى مصاف المجتمعات المتطورة والمناضلة ، وهنا يستطيع الفرد المثقف أن يبذل قصارى جهده في سبيل التغيير الواعي .. لا أن يضرب عرض الحائط ما جاء به الآخرون من ثقافة وتقدمية ويهملها او يتغاضى عنها لانها لا ترقى بمجتمعه أو لانها لا تستطيع رفعه بين المجتمعات الاخرى .. وهذا يتطلب من كل المثقفين النظرة الشمولية للمواقف الحياتية والانسانية كما يتطلب التمسك بعنصر الاختصاص وما يرتبط به من أمانة وتشبع بروح الخدمة الاجتماعية والمشاركة الجماهيرية الصادقة والمثابرة .

ومن هنا تبرز مسألة ثقافية من طراز رفيع ، وهي أن المثقف بما يحمله من وجدان يرتبط بآمال الجماهير وآلامهم واحزانهم ، وهو الذي تقع عليه مسؤولية تجاوز التخلف الذي يشوه المجتمعات المحلية والتي ارتبطت الى حد كبير بالقيم الجديدة الوافدة عليها من الثقافات الهزيلة ، واذا كان هذا هو دور الانسان المثقف ، فلأن دوره طليمي ومن كان طليعيا فهو ملتزم وعليه فلا بد أن تظل حركته واسعة ولها قدرة على احداث التغيير الشامل ونمو الفعاليات المتقدمة واتساع آفاقها ..

وما دمنا بهذا الصدد.. فلا بد أن نلقي نظرة موضوعية على تقسيمات الثقافة وخصائصها العامة ..

* اورد الدكتور عمر الشيباني في احدى مقالاته بعض تقسيمات الثقافة ونمو اشكال مجتمعاتنا المحلية العربية معتمدا في ذلك على شرح متكامل لهذه التصنيفات الجديدة .

* الثقافة المادية ..

وهي الثقافة التي تتمثل في انماط المأكل والمشرب وانواع الادوات المستخدمة .

* الثقافة المعنوية ..

وتتمثل في المعارف والافكار والمشاعر والعلوم والآداب والفنون وهذه التقسيمات صورية . انها متداخلة المناصر .

واذا جاز لنا أن نقسم الثقافة حسب المحتوى والانتشار وتوزعها في المجتمعات الصغيرة والكبيرة فان الامر يصبح مختلفا تماما ..

فهي في محتواها تتوزع على مستوى فردي وجماعي ، وتكون عند الافراد ذات صفة عقلية ، في حين انها عند الجماعات تكون شمولية لانها تنسحب على اللغة والعادات والقيم والتقاليد .

اما اذا انتشرت الثقافة فيكون انتشارها على الشكل التالي :

ـ ثقافة محلية ـ ثقافة وطنية ـ ثقافة اقليمية ـ ثقافة عالمية .

* اما علماء الاجتماع فان لهم رايا آخر ، ذلك انهم ينظرون الى الثقافة من زوايا متغيرة الحركة والسرعة لانهم يربطون حركة المجتمع بحركة الثقافة ، وهكذا تختلف نظرة علماء الاجتماع عن غيرهم من المتخصصين في الامور التطبيقية والتجريبية ، لذا فقد جاءت الثقافة حسب رأيهم على نوعيها :

ـ ديناميكية .. متغيرة ـ وجامدة ..

ومن خلال نظرتنا للواقع وخاصة مجتمعاتنا العربية المتطورة فان ثقافته الديناميكية ليست معزولة عن الاحداث وعن التطورات المرافقة لهذه الاحداث .. كما أن هذه الثقافة هي التي تمنح الافراد حرية الحركة والتطور والانفلات كما أنها تفتح الكثير من النوافذ على الثقافات الاخرى لتتأثر بها او تؤثر فيها ، فتأخذ وتعطي .

أمـا الثقافة الجامدة فهي تركز اهتمامات الافراد والاجيال حول اوضاع معينة ينعدم فيهـا التجريب ويقل معها التجديد .. ويصبح الرجوع الى الماضي حنينا متزايدا كما يصبح جيل الكبار هو الآمـر الناهي .. وهكـذا تلتزم المجتمعات ذات الثقافات الراكـدة بالأماني والوعود المستقبلية ..

* * *

تطور الثقافة العربية :

يتساءل البعض حول اذا ما كان تراثنا وماضينا وفكرنا حصيلةتفاعل داخلي بحت .. ام أن هناك تداخلات مع ثقافات الامم المجاورة افرزت هذا التراث ؟ .

هذا السؤال يلح علينا ان نعود قليلا الـى الوراء .. لنسبر اغوار ثقافتنا العربية ، وموازاة هذه الثقافة لثقافات الامم المجاورة ثم تفاعليا مع تلك الحضارات .

ونتيجة لديناميكية ثقافتنا العربية واصالتها فقـد استوعبت تلك الثقافات المجاورة ، وفتحت الابواب لادماج العناصر الجديدة في القوة الاصيلة لثقافتنا العربية ، ولكون طاقاتنا المتفتحة لازالت في عنفوانها ، فان مجموعة الافكار الجديـدة سرعان ماذابت ، وسرعان ماانتشرت وتوزعت في شرايين حضاراتنا المتجددة .. وذلك ما اعطاها دفعات من التقدم والارتياح ، وهذا مااكسب مثقفينا النضج ومنحهم الثقة .

ترى كيف بدا التعامل مع ثقافات الامم المجاورة ؟ .. هل حقا بني هذا التعامل على اسس حضارية مكتسبة .. ؟ .

وهنا لابد أن نتوقف مع الزمن قليلا للاجابة على هذا السؤال ..

نحن نذكر سنوات الفتح الاولى ، ونذكر كذلك كيف سقطت الدول المجاورة لدولتنا العربية في ذلك الزمن .. ومن هنا تفتحت عيون المثقفين على حضارات تلك الامم .. وبدأت الافكار الجديدة تلتحم بشتى الطرق العلمية مع ثقافتنا العربية .. ولقد استطاع المترجمون والكتاب العرب، ان يقتبسوا من الانظمة المجاورة مايناسب طموحاتهم ودولتهم الجديدة.. معتمدين في ذلك على معادلات بديهية ـ ذلك لو انهم حاربوا تلك الثقافات بنفس الضراوة التي حاربوا فيها الجيوش لما استطاعوا ان يحققوا قفزات نوعية خلال عشرات السنين .. ولما استطاعوا ان ينتقلوا من حياةالبداوة البسيطة الى حياة الترف والحضارة المزدهرة .. كذلك فان الكثيرين منهم وخاصة أولئك الملتزمين لم يستطيعوا تقبل الافكار المستوردة من الامم المجاورة ، وشنوا عليها حربا قاسية معلنين ان تلك الافكار تخالف تعليمات العرف والتقاليد العربية .. ولم يأخذ القادة الاوائل برايهؤلاء ولو تم ذلك لظلت حضارتنا اسيرة بعض التقاليد الغربية حتى يومنا هذا.

ولقد اعتمد هؤلاء القادة على حل وسط .. لارضاء اولئك المتزمتين ولمنح اولئك الاخذين بالافكار الجديدة حرية الحركة في الكشف عن حضارات الامم والانتقال بأساليب حياتها ودمجها بنظم الحياة العربية الجديدة .

ولقد تمثل هذا الحل ، في ان يراعي المثقفون الجدد اصالة عروبتنا ، واقتباس الافكار الجديدة والتي تناسب طموحاتنا بعيدا عن الحساسية والتعقيد .. ومن هذا المنطلق الفكري المحدد .. بدات الافكار الجديدة تغزو واقعنا العربي وبدأت الثقافة العربية تسير وفق برنامج زمنيدقيق وراحت هذه الثقافة تنتقل سريعة في شتى المسالك المفتوحة ، لتبدا مسيرة حضارية ، جديدة .. واثبتت هذه المسيرة وعلى مدى قرون متواصلة استمرارية الحياة واتصال العطاء الثقافي رغم كل معوقات النمو والاصلاح .

المد الفكري والتوسع الثقافي :

اذا كانت ثقافتنا العربية في الازمنة الوسيطة قد تحققت من خلال اندماج العديد من الافكار الجديدة للدول المجاورة ، فكيف امتدت هذه الثقافة وتوسعت ..؟ وهل كان لها ملامح وسمات متميزة في تلك الازمنة؟ نظرة دقيقة على التركيب البيولوجي لمجتمعاتنا العربية في العصور الوسيطة تجعلنا نؤمن بان اجناسا كثيرة شكلت هذه المجتمعات العربية، ولقد تلاحمت هذه الشعوب وانصهرت في بوتقة واحدة ، وراحت تفرز مجموعات من العلماء والمفكرين ، كلهم شقوا طريقهم بصعوبة ، وانتشروا لجمع التراجم واقتباس العلوم والمعارف ، وخاضوا من اجل ذلك تجارب عديدة ، اكسبتهم القدرة على تحقيق مايطمحون اليه ، وكان لتشجيع الحكام والقادة العرب اكبر الاثر في اثراء ثقافتنا العربية ووقوفها شامخة بين مجموعة الثقافات الجديدة .. ومن خلال هذا التشجيع للثقافة والمثقفين .. بدأت الانطلاقة الجديدة للثقافة العربية تحدد مساراتها بين شعوب الارض ، وبدأت الخيوط تتكامل لتوزع ثراءها الفكري على مجموعات كبيرة من الشعوب الاوروبية والتي لازالت تتخبط في الظلام ..

وهنا لابد ان نتساءل .. ؟

ليس معقولا أن تستوعب حضارتنا وهي في بداياتها الاولى كل هذه الافكار الجديدة ؟ .

كيف حوصرت هذه الافكار وبرمجت ثم كيف اختير لها الطريق الواسع لتنطلق من خلاله قوية ومعززة ؟ .

من خلال الدلالات الكثيرة الواضحة تبين لنا ان كل مبررات الخوف من طغيان الافكار الجديدة ، قد تلاشت ، ذلك ان اصالة الثقافة العربية، وقدرة لغتنا على تجاوز كل اسباب الخوف ، حاصرت هذه الافكار

وبلورتها في مجموعة من المداخلات الحضارية والثقافية ، واضافت اليها من القيم ماييناسب طموحات امة متنامية ، ومايناسب فكرا مميزا بقدرات وحكم قوي وثابت .

(وبفضل هذه الشجاعة في قبول الافكار الجديدة ظهرت في دولتنا العربية مجموعة من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والمفكرين الاجتماعيين .. كانت منارة للعالم كله من خلال العصور الوسطى المظلمة ، وكانت هذه الاسماء اللامعة هي التي قدمت فيما بعد ، اشعاعها العلمي والفكري الى اوروبا ، واسهمت بدور يتزايد الاعتراف به في انهاض العلم والفكر الاوروبيين ونقلهما الى عصر جديد) (٥) .

لماذا الربط بين ثقافتنا العربية والزمن الماضي ؟.

لماذا لانعمل دائما على استنهاض ثقافتنا العربية ليعود اليها الابداع والتجديد ؟

وهنا لابد من تغيير كيفية التعامل مع الماضي .. ولايكون ذلك الا اذا انزلناه الى مستوى الحياة العادية ، لنستمد منه مايبدو لنا صالحا في وقت ما ، نتحاور معه ونتخذ منه مراجع ومنطلقات معا ، بدون عملية الهضم هذه يبقى الماضي كالعبء الذي يثقل كاهلنا ولايساهم في تطوير شؤوننا .

وهذا يعزز مفهوم ربط الثقافة بالزمن ذلك ان ماتحمله الثقافة من قيم واتجاهات ومواقف لايكون له مفعول في حياة الانسان الا اذا استطاعت تلك الثقافة على ضم اوصال الزمان ، اي ربط الحاضر بالماضي والمستقبل معا .. وسيطرق عليها في نظرة موحدة وجهد متناسق .. (٦) .

لكن كيف السبيل الى استنهاض ثقافتنا العربية مادمنا ننظر الى تراثنا الحضاري نظرة منسية ؟ .. اننا لن نستطيع ذلك الان .. لان كثرة مثقفينا يشكون من عيب النقص ازاء الثقافات العالمية المعاصرة .

وان هذه السمة التي ترتبت على تراجعات كثيرة من خلال الانهزام الثقافي على مر العصور هي التي جعلتنا نتوقف طويلا ازاء كل ماهو جديد وحضاري وجعلتنا كذلك نفقد سبل المقاومة الفعالة ازاء الغزو الثقافي الذي ملأ علينا حياتنا واعمى بصيرتنا .

وهذا كله هو الذي قاد بعض مفكرينا الى اتباع اساليب التقليد الفارغة وحين عممت هذه الاساليب وخضعت للتطبيق تبين انها ضارة وملفقة ، ولا تصلح لمجاراة طموحاتنا في النمو الفكري والازدهار الحضاري ورغم مقاومتنا لهذه الاساليب فان قدرة الغالبظلت هي الطاغية ،وتعالت صيحاتنا من جديد تطالب بشتى الوسائل رفض هذا اللون من الغزو لاساليب حياتنا العصرية ، وفي ظل تراكمات من التخلف عبر سنوات الجفاف الثقافي التي مرت على امتنا .. بقينا محاصرين حتى يومنا هذا .

* * *

اصالتنا الثقافية :

الاستيعاب والتحدي :

ان من اصعب الامور ان يقوم المرء بعملية تنفيذ او تصفية للتراث .. وذلك من اجل بلورة الاصالة صافية غير مختلطة .. لان الاتصال والتبادل والاخذ والعطاء قديم قدم الحياة الانسانية وهذا يعني ان ثقافتنا العربية امتدت عبر الزمن وعرفت من حضارات الامم المجاورة ، آخذة من تلك الحضارات ما يلائم انطلاقة الفتوحات العربية وما يناسب نظم الدولة العربية الجديدة .

ولابد ان نتوقف قليلا عند هذه المعادلة لان اصالتنا الثقافية في ذلك الوقت كانت في الاصل مجموعة من التيارات الحضارية امتزجت وتشكلت وتم استيعابها ثم عادت فتشكلت من جديد ، وراحت تنبعث من جديدفي كل البلدان التي تخضع للحكم العربي آنذاك .. ولم يتوقف الامر عند

هذا الحد بل تجاوزت ثقافتنا العربية الى اوروبا ودويلاتها المختلفة ، واخذ هؤلاء من الفكر العربي وشكلوه بطرق تخدم نهجهم الفكري ومستقبلهم العلمي .. وهذا كله يقودنا الى معادلة اكثر دقة .. ذلك ان مسألة وضع حد فاصل بين الاصيل والمستورد مسألة معقدة ، ومن ثم الوقوف في وجه التفاعل الثقافي بحجة الحرص على اصالتنا هو موقف ينطوي على اغفال للعناصر العديدة وللمكونات الشديدة التباين ، والتي اسهمت كلها في تكوين مانطلق عليه نحن اسم الاصالة .

ان تراثنا ــ هو رمز الاصالة في ثقافتنا العربية وهو الذي يمدنا دائما بالخامات المتجددة لنتخذ منها في هذا الزمن محورا مشعا لموقف عربي اصيل ازاء المواقف الانسانية الكبرى المطروحة في هذا العالم .. وهذا التراث .. هو الذي يدفعنا باستمرار لان نشكل ثقافتنا العربية وسط هذا الخليط العجيب من الثقافات الاجنبية والمتصارعة ولكننا على العكس نقف بين ناقل لفكر اجنبي او ناقل لفكر عربي قديم .. فلا النقل في الحالة الاولى ، ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا معاصرا .. لاننا في الحالة الاولى سنفقد عنصر العروبة وفي الحالة الثانية سنفقد عنصر المعاصرة والمطلوب هو ان نستوحي لنخلق الجديد ، سواء عبرنا المكان لننقل عن الثقافات الاجنبية او عبرنا الزمان لننشر تراثنا القديم .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه (تجديد الفكر العربي) ــ انه اذا اوحت الينا الثقافات بخلق ثقافي جديد ، فيه النظرة العربية وفيه الوقفة العصرية كان من اهم مايميز هذا النتاج الجديد ــ فيما ارجح ــ خروجنا الى عالم الوقائع والاحداث .. بالمعايير نفسها التي كنا نسجها لفظا ثم نكتفي منها بذلك ، ننظر الى ذلك العالم الخارجي النظرة التي تلتمس فيه القوانين المطردة التي تنظمه ، والتي على اساسها يمكن التخطيط لمسارات المستقبل تخطيطا يحقق الاهداف المرجوة بدل ان ننظر الى ذلك العالم النظرة التي تجعله ضاربا في تيه المصادفات لاندري بماذا يفاجئنا به الغد(٦) .

ان عبورنا للزمن الماضي .. يعني قدرتنا مع الاخذ من تراثنا بمايناسب مرحلتنا المعاصرة في الحياة والتطور وان ذلك الفنان الذي راح يغمس ريشته ليلون تلك المباني الهندسية الجميلة في زمن حضارتنا تلك ، كذلك فان شعراءنا الذين هندسوا تفصيلاتهم وقصائدهم ، كل هذه الوقفات اوحت بالمجرد الكلي وجسدت خبرات طويلة وشاملة .. لقد وجدنا ذلك كله في تراثنا وهذا مايدعونا الان للعودة الى هذا التراث لان العودة اليه تركز من نتاجنا الثقافي وتدفعنا الى ان نخطو خطوات كبيرة نحو تحقيق الثقافة العربية المعاصرة .

* * *

الثقافة العربية : في مواجهة الغزو الثقافي :

لمحة تاريخية :

واجهت ثقافتنا العربية في بدء حياتها ونموها كثيرا من التحديات المذهبية والدينية والفلسفية ، ملأت ثقافتنا العربية في بواكير عهدها حتى تفتحت على ثقافات الامم المجاورة الهلينية والهندية والفارسية ، وراحت تغرف منها ما يتلاءم مع تطورنا الحضاري والثقافي ، وان الباحث الدارس ليدرك حقيقة ان ثقافتنا العربية هي التي استوعبت كل هذه الثقافات وصهرتها في بوتقة واحدة واخرجت منها تيارا له وزنه الحضاري والمعرفي ، واستطاع هذا التيار ان يشكل ثورة في عالم الفكر والعقل آنذاك .. وظل هذا التيار قويا متفاعلا ، حتى بداية عصر الانحطاط ، والسقوط .. فجاء الغزو الثقافي مدعما بالنفوذ الاستعماري .. وبدا يعمل على انتزاع ثقافتنا العربية من جذورها وفصلها عن الماضي والتراث . كما عمد الى دعوى ان الثقافة القومية ليست هي الاساس وعليه فيجب ان يتبع المفكرون والمثقفون العرب نظرية الوحدة الفكرية العالمية ، وتلك من اخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي .

ومع بدايات عصر النهضة ، تراجع الغزو العثماني وحل مكانه غزو فكري جديد ، ممثلا في رسل الاستعمار الحديث الذين حلّوا مبشرين بقيم جديدة وبأساليب جديدة .

وخضع عالمنا العربي في اتفاقيات سايكس بيكو ١٩١٦ الى غزو استعماري شديد توزعت من خلاله اقطارنا العربية الى مناطق نفوذ لدول تجهل ثقافتنا العربية ولا تعرف كيف تتعامل مع اصولها الحضارية .. ومن منظار فكري متعصب انطلق دعاة الغزو الثقافي الجديد للسيطرة على منابع ثقافتنا العربية وسد الطرق والمنافذ أمام مثقفينا ، لكي يظلوا قابعين وراء مجموعة من الامال والاماني فقط ، لكن ثقافتنا ذات الجذور بدأت تشع لاولئك المفكرين العرب ، وبدات حركات الاستقلال تاخذ مجراها في الاقطار العربية وشهدت مساحات الوطن العربي على طول امتداده ثورات دامية من اجل الوقوف وباصرار في مواجهة اشكال الغزو الثقافي .

* * *

الغزو الثقافي تحد لثقافتنا العربية :

حين نهضت اوروبا من سباتها في بداية القرن السادس عشر ، كانت شمس العرب ، والثقافة العربية تغرب قليلا قليلا ، وزاد ذلك من عدائية السياسيين الاوروبيين لحضارتنا وثقافتنا .. والتي كان لاحتكاكهم بها فضل كبير في ازاحة تلك الغفوة الطويلة عن عيونهم (الحروب الصليبية) .

ان الانتصارات التي حققتها اوروبا في ميادين الاكتشافات والعلوم التطبيقية وحرية الراي دفعها الى بداية عصر جديد من عبودية واستغلال الاخرين .

واستمرت هذه الروح المدائية لتسود دول اوروبا وامريكا على حد سواء حتى يومنا هذا ، وكان واضحا منذ البدء ان الوسائل التي كانت

تعتمدها هذه الدول في السيطرة الاستعمارية لتحقيق اهدافها ، كانت تتقدم وتتطور هي أيضا مع تطور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

غير ان ازدحام هذه الدول وتسابقها المحموم على مناطق النفوذ وتنافسها الدموي في بعض الفترات التاريخية المعروفة ، كل ذلك ادى الى نشوء وضع ثقافي جديد ـ هو التفكير السياسي على أوسع مدى ، فتحول الدين في أوروبا كالعلم نفسه الى وسيلة سياسية يستخدمها الناس كلهم في اغراضهم الشخصية والعامة كما تستخدمها الاحزاب في سعيها وراء الحكم(٧) .

وهنا تدخلت الفلسفة ، اذ افضى الصراع بين العلم والدين ـ وهذا لم تعرفه ثقافة العرب ـ الى نشوء حركة فلسفية ، وبعدها بدأ التفكير جادا للبحث عن الجوانب الاقتصادية .. وراحت الاحزاب السياسية تتكون وتتغلغل في صفوف الشعوب على أساس اقتصادي ونظرة اقتصادية، ولم يبق للتكتلات الدينية التي كانت سائدة من قبل أي تأثير في الحياة العامة في أوروبا .

وهكذا تغلبت الروح الاستعمارية على الامم الاوروبية كلها وساقها ذلك الى اعتماد العلم والتقنية والسياسة والفلسفة والاقتصاد في آخر مرحلة ، وبهذا وصلت أوروبا في القرن التاسع عشر الى نقطة تقف بها على طرف النقيض من الحضارة العربية والثقافية التي انبثقت عنها .

وانطلقت الروح العدائية الاوروبية نشطة على ارضنا العربية .. حيث وقفت علانية وراء الحركة الصهيونية واعطت هذه الحركة وعدا باقامة وطن قومي في فلسطين العربية وكان هذا الوعد اسوأ ما وصلت اليه العقلية الاوروبية في تحدي الثقافة العربية واصالة جذورها منذ ان كانت .. ولم يتوقف الامر عند ذلك الوعد ، بل استمرت هذه الدول الاستعمارية في الكشف عن خططها لاقامة الدولة الصهيونية على ارضنا العربية .. وارتفعت اصوات كثيرة تحارب هذه العدائية الجديدة ، لكن

الروح المنبثقة عن التوسع وامتداد النفوذ هي التي ظلت تسير الامور السياسية والثقافية في الوطن العربي .. وبدات ثقافتنا العربية مع ما يتزامن معها من ضعف تناضل من اجل رد الاعتبار لهذه الشعوب المغلوبة ، ضد من تنكروا لاشعاع هذه الثقافة في ازمان مضت.. وانتصرت ثقافتنا العربية عندما ترسخت جذورها فوق كل الارض العربية وبدات شعوبنا تحارب من أجل الاستقلال ، وتحقق لثقافتنا ما كانت تناضل من أجله وهكذا بدات تعود لها الحياة من جديد ، وبدات العقول المفكرة تزيح الستار والاتربة عن مخطوطات العصور الوسيطة وبدا المشتغلون بالتحقيق عن التراث يسهرون الليل لاعادة الحياة من جديد الى كل مخطوط تراكمت عليه العصور ، وبدات تظهر للعالم من جديد نهضة ثقافية عربية راحت تأخذ طريقها وسط التوهج الحضاري العالمي .

* * *

فلسفة الغزو الثقافي :

لعل اخطر مانجح فيه الاستعمار بتر معظم مثقفي العالم الثالث عن ثقافاتهم القومية .. وربطهم بقيم الحضارة الغربية ، واقناعهم بان هذه القيم الغربية حقائق انسانية مطلقة لا سبيل الى التقدم بغير الايمان بهـا والعمل بمقتضاها .. وما دام الغرب قد حقق كل هذا التقدم العلمي والتكنولوجي الذي غير مجرى التاريخ وطور حياة البشر فلا بد ان يكون نهجه الاجتماعي والثقافي ارقى واقدر من كل نهج اجتماعي وثقافي في هذا العالم الثالث المتخلف(٨) .

ذلك مانسمعه كل يوم ، وذلك مانقراه في الصحف المحلية والاجنبية التي تغزو سوقنا الثقافي اينما كان ، وهذا مايراه اطفالنا على الاجهزة المرئية ،اوما يسمعونه باذانهم عبر المذياع ، وحيث مايتوجه ابناؤنا يجدون على الارصفة الكتب المترجمة عن ثقافة الغرب فيأخذون ويتركون كل ما له علاقة بثقافتنا المحلية او العربية ، وهذا التوجه المشدود الى الثقافة

الغربية لم يأت بطريق عفوي ، وانما جاء عبر سنوات من الغلبة الفكرية والاستعمارية لدولنا الضعيفة والمهزومة ، وشكل بالتالي محصلة جديدة فيها انهزام ثقافي امام ثقافة الغرب حتي يومناهذا .

وقد رافق هذا التشكل الثقافي الجديد فلسفات تبرر الضعف لثقافتنا العربية ، وتؤيد الانسلاخ الثقافي عن اصالة تلك الثقافة والتوجهباندفاع قوي الى الثقافة الداخلية .. ولقد وجدت هذه الدعوة طريقها وسط المجتمعات العربية المتخلفة ، وراح الناس يدافعون عن هذه الفلسفة الجديدة من خلال منطلق حضاري وعصري ، وان العودة الى القديم شيء سخيف .

وقد تاثرت الاجيال في عالمنا العربي ، واصبحت تنظر لما يجري على الساحة الثقافية بمنظار الحذر والترقب ، ذلك لان كل التبريرات المعطاة ليست مقنعة . وسقط في ايدي الاجيال نظرية جديدة تدعم طموحاتهم المستقبلية ، وهي ان مجريات حياتنا الثقافية تمر الان في معركة قاسية اشد ضراوة من معارك التحرير السياسية .

وعليهم مادام الحال كذلك ان يتنبهوا لاخطار تلك الثقافات الوافدة لانها تبعدهم عن مواقعهم الحضارية ، وفي نفس الوقت تقتل فيهم القدرة على البحث والمتابعة .. ذلك لان ثقافتنا العربية ليست متخلفة كما يصورها الاستعمار ، لانها كانت ثقافة رائدة في زمن مضى .

❊ ❊ ❊

الثقافة المضادة الى اين :

بدأت الثقافة المضادة تظهر في عالمنا العربي حين بدأت المؤسسات التربوية والتعليمية المرافقة للحملات الاستعمارية تغزو الارض العربية ..

ومن خلال تلك المؤسسات كان الحرص على صياغة عقولنا صياغة من شأنها ان تجعلنا تابعين او مستعبدين ، وهكذا بدات تظهر على السطح

ثقافة جديدة يغلب عليها طابع الاحتواء والخداع والمغالطة والغموض ، وقد نجحت هذه الحملة الثقافية في أوائل القرن، لكنها بدات تتراجع في أواخره.

وهكذا اثبتت ثقافتنا العربية وعلى مر سنوات الضعف والانحطاط انها لا تنمو ، الا من خلال جذورها ، وان الثقافات الغربية مهما بلغت من قوة فانها لاتستطيع ان تغير من مقومات الفكر العربي ومعرفته باصول هذه الحياة الثقافية .

وراحت قوى التبشير والتغريب الثقافي تعمل على تحريف المقومات العلمية والحضارية حين بدا المضللون يكتبون عن التاريخ العربي والحضارة العربية صفحات زائفة ، وكان واضحا من ذلك اسقاط مرحلة هامة من مراحل تطورنا الثقافي والحضاري .

ولم تتوقف المؤسسات المعنية بل زادت في بلورة اهدافها التغريبية حين علمت ان المؤسسات التربوية لم تنجح ، فانتقلت الى طرف اكثر فعالية من تلك التي بدات بالامس فبدات الاقمار الصناعية والمحطات الارضية والشاشات المرئية والاجهزة السمعية تعمل على توريد كل ماله بثقافة الغرب وحضارته الى الدول الدائرة في فلك الغرب وثقافته .. وسرعان ماانتشرت الاشرطة ، كما انتشرت الموضات العصرية ، وراحت تغزو البيوت الثرية اولا ، ثم بدات تتنقل تدريجيا عبر مراحل نفسية مهياة لهذا الغزو الجديد .

ولم تتوقف الحملة عند هذه القشور ، بل تجاوزتها الى التاريخ ، وعند الوصول الى هذه النقاط الحساسة من مكونات الامم ، فان الامر يصبح خطرا ، وهكذا راحت الصهيونية العالمية بمؤسساتها المنتشرة في فلسطين المحتلة تنشر مزاعمها عن الارض العربية والانسان العربي في سلسلة من التشويهات الثقافية والتاريخية معتمدة في ذلك على مجموعة من الحملات النفسية التي نجمت عن الواقع المهزوم امام الهجمة الصهيونية العنصرية ، وقد وقفت امتنا امام هذه الحملات النفسية ضعيفة ، لكنها

معذلك بدات تقاوم من خلال بقائها او عدم بقائها على الارض العربية ، واصبحت تلك المركة معركة مصيرية لامتنا العربية ولثقافتنا العربية المتزامنة مع وجودنا كله .

واذا كانت الصهيونية العالمية موجهة ومسيرة من الثقافة الغربية ، فان حملات اخرى بدأت تنطلق من خلال اثارة قضايا كثيرة في مقدمتها حرية الفكر وقتل هذه الحرية في الثقافة العربية ، وعجز الفكر العربي عن مواصلة النمو والعطاء في عالم تسوده قيم الغرب الجديدة. .وقد روجت لهذه الحملات مجلات عربية أشرف على تحريرها تابعون لسلطات الحكم الاستعماري في الاقطار العربية مع مطلع هذا القرن ، وتصدى لهذه الحملات التشويهية كتاب عرفوا بالتصاقهم الحاد بثقافتهم العربية وحضارتهم العريقة .

وجاء دور اللغة العربية ، حيث تعرضت هي الاخرى الى تحد شرس حين اعلنت الثقافة الغربية العمل على تجزئة اللغة العربية والقضاء على وحدتها ، وتغليب العاميات الاقليمية عليها ، وقد بدات الحملة من منطلق مقارنة لغتنا العربية باللغة اللاتينية التي دخلت المتاحف مخلية الطريق للغات اقليمية كثيرة حلت محلها .. وركزت الحملة هذه على تحجيم انتشار اللغة في افريقيا وآسيا .. حين فشلت في تجزئتها ولا زالت الحملات الاستعمارية توقف زحف لغتنا العربية في الدول الصديقة والمجاورة وذلك خوفا من تاثير الثقافة العربية على سكان تلك الدول وانبعاثها قوية في تلك الاوساط المهياة لها .

ولقد صمدت اللغة العربية اخيرا في وجه هذه الحملات القاسية، ذلك لان العربية سر خالد ، وهي قادرة على استيعاب كل المصطلحات والرموز الثقافية بلا ضعف .

ولقد جاء دور التشويهات التاريخية والفلسفية ، فلم تتوقف الفزوة الثقافية المضادة عند حد التشويه السياسي ، بل تجاوزته الى تحليل

المنهج التاريخي، مدعية ان هذا المنهج لا يخدم التطور الحضاري، واثبتت الوقائع العلمية بالمقارنة ان منهج البحث العربي هو الذي قصر تقصيرا بينا في التواصل الثقافي والحضاري ذلك لانه يقوم على التجزئة بينما يقوم المنهج التاريخي العربي على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساعها .

وقد انكرت الثقافة الغربية دور الفلسفة العربية في ظهور تلك الثقافة، وجاء هذا الانكار ضمن حيلة مرتبة مرافقة للمدارس المعنية بالفلسفة في الشرق العربي .

لكن الرد جاء على السنة فلاسفة الغرب أمثال جوستاف لوبون ، وتوماس كارليل ، وعشرات غيرهم حين اعلنوا بصراحة ان ذلك الدور الضخم الذي قام به الفكر الاسلامي والعربي في بناء منهج المعرفة وانشاء المنهج التجريبي العلمي هو الذي مكن أوروبا من صياغة حضارتها وثقافتها المعاصرة .

وكان التعليم وكانت التربية من اخطر المناهج الثقافية التي تعرضت لخطر التخريب والغزو الثقافي ، وحين لم تتمكن المدارس الاجنبية في الوطن العربي من استيعاب المجموعات المثقفة وضمها الى صفوفها في معاداة الثقافة العربية ، بدات الثقافة الغربية تتسلل عبر مؤسساتنا التربوية والثقافية من خلال النشرات والمجلات ومن خلال النظريات العلمية والمدرسية ، ولكنها لم تفلح في ثني المثقفين العرب عن الاشادة بثقافتهم القومية وتاريخهم الانساني في كل مراحل نموه وتطوره .

وحين شعرت الايدي المسيرة لهذه الحملات بالفشل ، ايقنت ان ثمة شيء يحرك احساس هؤلاء الناس باتجاه تراثهم الثقافي والحضاري ، وبدأت سلسلة من الضغوط الحضارية تمارس السيطرة على المنطقة العربية في ظلال الصراعات السياسية العالمية معتمدة على انظمة الحكم المسيرة لهذه التيارات الثقافية ، بحيث تكون قادرة على حجب تيار ثقافي

معين ، وفسح المجال أمام تيار مضاد للحلول محله ، وهكذا اغرقت الاسواق الثقافية في بعض اقطارنا العربية بما هو معاد لاهدافنا ومبادئنا وامتلأت ساحات المدن واسواقها التجارية بما هو قاتل لطموحات ابنائنا، وانتشرت الافكار الجديدة عبر سنوات الحواجز الاعلامية المسيطرة في الطريق الجديد التي ارادتها السياسات الاستعمارية الفوقية .

ورغم هذا فلم تنجح الحملات المضادة لثقافتنا العربية لان اجيالنا اصبحت قادرة على التفريق بوضوح بين ما هو صادق وما هو خادع .. وهكذا بدات الحملات تتخذ مسارات جديدة لعلها تستطيع ان تنال من ثقافتنا العربية ذات الاصالة والمتمكنة من العودة بالروح الى التراث والتاريخ .

* * *

تحرير الثقافة العربية

من الغزو الثقافي :..

في وطننا العربي احساس حاد بان ثقافتنا تواجه تحديا مضادا ،وهذا التحدي الفكري يتمثل في مجموعة من الافكار التي شكلت اطارا محاصرا لثقافتنا ترى الى اي حد يمكن ان يكون هذا الغزو الثقافي ممثلا في الفكر المضاد ضارا ؟.. وكيف نستطيع رد هذا الغزو وثقافتنا العربية لا زالت في طور النمو ؟.

ان الدعوة الى تحرير ثقافتنا من الغزو الثقافي تبرر دائما بالحرص على التراث الاصيل ومنع الافكار الآتية من الخارج ، لكي تتدرج ثقافتنا العربية مرحليا ضمن متطلبات العصر .. وهذه الدعوة سليمة اذا راعينا كثيرا من المسلمات الاساسية في هذا الموضوع ، وان من يحاول العمل على تحرير ثقافتنا من تيارات الثقافات المضادة انسان يتحلى بالوعي والحرص .. ولكن علينا والحال هذه ان نكون حذرين تجاه تلك التيارات المندفعة نحونا بلا توقف وبطريق ملتوية .

وقد تنبهت كثير من دولنا العربية الى اخطار وسائل الاتصال الجماهيرية وبما تنقله من اعمال فنية جذابة ومشوهة كالافلام والمسلسلات هذه الاعمال الفنية ذات القشرة الهشة تتغلغل في كل بيت وتركز على قيمة غربية غير مقبولة حتى بالنسبة الى كثير من المجتمعات الصناعية المتقدمة والتي يحذر من اخطارها المفكرون حتى في بلادها المنتجة ذاتيا ، هي التي تشكل فكرا مضادا ينبغي ان نحاربه(٩) .

واذا كنا حريصين فعلا على تحرير ثقافتنا العربية ، فلا بد ان نسعى من الداخل الى تحريرها اولا ، ثم نعمل بالتالي على حماية مسيرتها ضمن معطيات العصر ..

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه .

هل حضارة الغرب اليوم في دور العطاء ، حتى تبهر النفوس وتثير الاعجاب ؟ .

وهل اعطت وماتزال تعطي غير الظواهر المادية والاستهلاكية والترفيهية ولماذا بقي انسان تلك الحضارة تائها غريبا غير مطمئن الى حاله ؟ .

ان المفكرين هم الذين اجابوا على هذه الاسئلة ..

فقد قال مؤن باين .. نحن على حافة الهاوية ..

وقال ارنولد توينبي ـ نحن البشر بكل تقدمنا العقلي وقدراتنا الفنية نبدو وكأننا قد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والالية التي كان عليها اجدادنا البدائيون . وتقول الكاتبة الفرنسية (مدام سنت بوانت) اني اتهم المدنية الغربية بانها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم انها القيت على عاتقها في الاجيال الاخيرة .

وهذا يكفي للدلالة على ان ثقافة الغرب لازالت قلقة ، وعلينا ان نتنبه الى ان ثقافتنا العربية لابد ان تقف بعيدا عن منحى الخطر . لان من اهداف الغزو الفكري المضاد هو مسخ ثقافتنا العربية وسد منابع الاصالة والابداع من حولها حتى يتوقف نموها وتطورها .

ولقد عمدت التيارات الفكرية المضادة والتي راحت تغزو عالمنا العربي بلا استثناء ، راحت هذه التيارات تعمل على تحريف المقومات العلمية والحضارية ، وكان الهدف من ذلك كله ، اسقاط مرحلة هامة من مراحل تطورنا الثقافي والحضاري والذي كان له الاثر الاكبر في ميلاد النهضة الاوروبية الحديثة .

ثم مضى الهدف الى خلق التبعيات الثقافية في الاوساط العربية حتى ادى ذلك الى عملية تفتيت القوى الثقافية والوطنية واضعافها ، فاصبحت بعد ذلك مجتمعاتنا هزيلة ممزقة .

وحرص المثقفون العرب ، منذ البدء الى تحمل المسؤولية الثقافية تجاه مايجري ومن خلال نضالهم الطويل تشكل تيار واع لرد ذلك الغزو في محاولات جادة الى تحريرالثقافة العربية من كل اشكال التسلط والقمع الفكري .. وساعد على ذلك تلك الروح القومية المتاصلة في اولئك المثقفين الذين وضعوا اقدامهم على ارض قومية متينة ، وراحت هذه الارض تمدهم بالثراء اللغوي الخصب ، وتدعم خطاهم بسلسلة من الموروثات الحضارية والتاريخية والانسانية ، وهكذا وقفت ثقافتنا مرة اخرى في ظل متغيرات العصر ، تدافع عن مقومات حياتها لضمان استمرار نموها وتطورها من اجل ثقافة عربية متقدمة .

* * *

المصادر والمراجع :

١ : انور الجندي ، اصول الثقافة العربية ، القاهرة ، دار المعرفة ١٩٧١ ص : ٢١ .

٢ : عبد الله عبد الدايم ، ازمة الثقافة في الوطن العربي ، مجلة الفكر العربي العدد الثالث : السنة الاولى ، ١٩٧٨م ، ٩ – ص ٤ – ٩ .

٣ : د. عمر الشيباني ، التربية والتنمية الثقافية ، مجلة الفصول الاربعة ، العدد ٩ السنة الثالثة ١٩٨٠ ، ١٨٠٩ .

٤ : د. فؤاد زكريا ، الافكار المستوردة ، مجلة العربي ، العدد ٢٣٩ ،١٩٧٨م ص:٦ .

٥ : الشاذلي القليبي ، الثقافة رهان حضاري ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨ ، ص : ٧٣ .

٦ : د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، بيروت ، ١٩٧١ ، دار الشرق .

٧ : عبد اللطيف شرارة – الجانب الثقافي من القومية العربية ، دار العلم بيروت ١٩٦١، ص : ١١٤ .

٨ : د. عوني الشريف قاسم ، مقاومة الانهزام الثقافي اولا ، مجلة العربي ، العدد ٢٦٥ ص : ٤٩ .

٩ : د. فؤاد زكريا ، الافكار المستوردة ، مقال ثقافي – مجلة العربي ، العدد ٢٣٩ . ١٩٧٨ ، ص : ١٠ .

١٠ : مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، دار الفكر بيروت ١٩٧١م .

١١ : عبد المنعم الصاوي ، عن الثقافة ، القاهرة .

١٢ : سالم السديهدي ، حول الثقافة والثورة الثقافية .

١٣ : الثقافة والتكامل القومي ، عبد الحميد يونس .

١٤ : محمد منير موسى ، اصول التربية الثقافية والفلسفية .